رأى رسول الله ﷺ رجلاً يغتسل بالبراز بلا إزار -يعني الفضاء الواسع من الأرض- فكره النبي ﷺ فعله فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ؛ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

فربنا ﷻ هو الحيي، الموصوف بكمال الحياء، الذي يليق بكماله وجلاله وعلوه؛ ليس كحياء المخلوقين، الذي هو: تغير وانكسار.

حياء الرب ﷻ نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول؛ فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال.

فمن جلال الله ﷻ: أن حياءه هو: ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه، ومن ذلك: أنه يستحي أن يرد عبده إذا رفع يديه إليه بالدعاء.

قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ

يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

ومن جلاله ﷻ: أنه -مع كمال غناه، وتمام قدرته- يستحي من هتك ستر العبد وفضحه.

وَهُوَ الحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ ... عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالعِصْيَانِ

لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ ... فَهُوَ السِّتِّيرُ وَصَاحِبُ الغُفْرَانِ

ومن عدل الله: أنه لا يستحي من الحق، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الأحزاب: ٥٣]، وعلى قدر المشاهدة لله تكون قوة الحياء في قلب المؤمن.

❐ حقيقة:

ومن زاد إيمانه زاد حياؤه؛ ولذا كان الأنبياء من أشد الناس حياءً، وقد وصف النبي ﷺ بأنه: "أشد حياءً من العذراء في خدرها".

والحياء جزء من أجزاء الإيمان، جاء عنه ﷺ أنه قال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ: شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

وأعظم الحياء وأحبه: الحياء من الله ﷻ.

ولما قال النبي ﷺ لأصحابه: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»، قالوا: يا رسول الله! إنا نستحيي؛ والحمد لله! قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ؛ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ البَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[حديث حسن. رواه

الترمذي].

قال ابن القيم: "من استحى من الله عند معصيته؛ استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحِ من معصيته؛ لم يستحِ الله من عقوبته".

❐ ما أجمل الحياء!

وهو لا يأتي إلا بالخير، مر رسول الله ﷺ على رجل يعاتب آخر في حيائه: إنك لتستحيي! حتى كأنه يقول: قد أضر بك! فقال له ﷺ: «دَعْهُ! فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[رواه الشيخان].

الحياء: دليل على المروءة، وعنوان على الشهامة، وآية على حسن الخلق.

الحياء: استشعار لعظمة الله، واستحضار لهيبته، ومراقبة لجلاله ﷻ.

قال بعض السلف: علمت أن الله مطلع علي؛ فاستحييت أن يراني على معصية.

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ ... وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى العِصْيَانِ

فَاسْتَحِيِي مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا ... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلاَمَ يَرَانِي

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه".

قال ابن دقيق العيد ﷺ: "إن الحياء لم يزل ممدوحًا مستحسنًا مأمورًا به، لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين".

❐ وأخيرًا..

حين وصف الله ﷻ نساء الجنة قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦]، أي: لاينظرن إلا إلى أزواجهن، ثم وصف حسنهن وجمالهن: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن:٥٨]، قدم صفة العفة والحياء على صفة الحسن والجمال، فلا قيمة لجمال المرأة بلا عفاف وحياء.

قيل: من عقوبات المعاصي: ذهاب الحياء وصفاء الوجه، يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» [أخرجه البخاري].

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَاقِبَـةَ اللَّيَـالِي ... وَلَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيرٍ ... وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

وتذكر أن من أبغض الناس إلى الله: من بات عاصيًا والله يستره، ثم يصبح يكشف ستر الله عليه.

اللهم! ارزقنا الحياء منك، ووفقنا لتحقيق خشيتك في الغيب والشهادة والسر والعلانية.